www.quranonlinelibrary.com

@Tafsircenter

الوقف التام في القرآن ورعاية التناسب

قراءة تحليلية

أحمد نجاح محمد

www.tafsir.net

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

www.Quranonlinelibrary.com

المعلومات والآراء المقدَّمة هي للكتّاب، ولا تعبّر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

المكتبة العالمية الفريدة لكتب التجويد والقراءات على الشبكة العنكبوتية

الملخص:

يعملُ هذا البحث على دَفْع إشكالية الانقطاع المعنويِّ المقصود في علم الوقف والابتداء، والترابط والاتصال بين آيات القرآن بما يَتطلَّبُه علم المناسبة.

فعِلْمُ الوقف والابتداء قائمٌ على مَدَى علاقة الآيات بما بعدها، وحالِ اتصالها وانفصالها، وأعلى درجات الوقوف ما انقطعت علاقَتُه رأْسًا عمّا بعده، وهو ما يُعرف بالوقف التام، بينما المُقَرَّر في عِلْم المناسبة أنه ما من آية ولا سورة ولا قصة إلا ولها صلة بما قبلها وما بعدها، يجمعها رِباطٌ، ويُوثِقُها علاقة من نوعٍ ما، وهذا يناقض تمام الوقف؛ إِذْ لازِمُهُ أنه لا يوجد وقف تامّ في القرآن الكريم، وهذا ما صرّح به بعضهم، وقد حاولتُ في هذا البحث دَفْعَ هذا المُشكل، طالبًا التوفيقَ بين الأمرَيْن، واللهُ الموفِّق والمُستعان.

يتشكَّل هذا البحث من مُقَدِّمةٍ ومبحثين وخاتمة؛ أمّا المقدّمة فتناولتْ فيها موضوعَ البحث، وإشكاليتَه، وخطَّتَه، أمّا **المبحث الأول** فجعلته مدخلًا لمبحث المعالجة، عرّجت فيه على عِلْمَي المناسبة والوقف والابتداء تعريفًا وشروطًا بصورة مختصرة، بينما اختصّ **المبحث الثاني** بدَفْعِ هذا المُشكل المذكور، والتوفيق بين الوقف التامّ وعلم المناسبة، وجاءت **الخاتمة** لذِكْر نتائج البحث.

المقدمة:

الحمْدُ لله، والصلاةُ والسَّلامُ على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن والاه، وبعد:

فإنّ إعجاز القرآن له مناحٍ متعدّدة، وجوانب مختلفة، حرص العلماء على بيانها، وكشفوا كثيرًا من أسرارها، ومن جوانب الإعجاز التي اتّجه إليها بعضُ المفسّرين تبيينًا وتفصيلًا النظر في تناسب الآيات، وربطها بالسابق واللاحق، وبيان اتصال الجُمَل والقصص على تباينها في الظاهر، وهو ما يُعرف بعلم المناسبة، وهو جانب من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم، يرى المشتغلون به أنه ما من آية ولا سورة ولا قصة إلا ولها صِلَة بما قبلها وما بعدها، يجمعها رِباطٌ، ويُوثِقُها علاقة من نوعٍ ما، ولو كان كلّ منها يتحدّث عن حقيقة منفصلة عن الأخرى في الظاهر، فآيات القرآن عندهم كالكلمة الواحدة في ترابطها واتصالها، ويمتدّ هذا الأمر ليشمل كلّ سورة بالتي تليها، وأوّلها بآخرها، وتتابع الأحكام، وتوارد الأحوال، وغير ذلك من أنواع المناسبات المتعدّدة والمختلفة.

من جانب آخر، فإنّ عِلم الوقف والابتداء قائم على مدى علاقة الآيات بما بعدها، وحال اتصالها وانفصالها، فتعدّد أنواع الوقف واختلاف درجاته قائم على مدى انفصال واتصال الآيات بما بعدها، وأعلى درجات الوقوف ما انقطعت علاقَتُه رأْسًا عمّا بعده، وهو ما يُعرف بالوقف التام، وهذا يخالف -في

ظاهره- ما تقدّم بيانه عن علم المناسبة، من ضرورة وجود اتصال وترابط بين آي القرآن، وهذا ما صرّح به بعضهم كما سيأتي.

إشكالية البحث:

من خلال العرض السابق يمكن تلخيص إشكالية البحث في التساؤلات الآتية:

- هل ثمة تعارض بين القول بوجود وقف تام في ظلّ القول بتناسب القرآن؟

- هل ثمة تلازم بين الانفصال المعنوي في الوقف التام، والترابط والاتصال في علم المناسبة؟

أهداف البحث:

- يهدفُ البحث إلى التوفيق بين الانفصال المعنوي في الوقف التام، واتصال الآيات وترابطها في علم المناسبة.

- استجلاء هذا الأمر ودفع اللّبس فيه، بما لا يدع فيه موضِعًا لنقد، ولا محلًّا لقول.

الدراسات السابقة:

لم يحظَ هذا الموضوع -على أهميته- بدراسة مفردة تحرّره على الوجه المراد، وغاية ما وقفتُ عليه هو استعراض إشكالية البحث، دون تحرير حقيقي

لها، فمن ذلك ما ذكره الشيخ طاهر الجزائري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: «لا خلاف بين العلماء في وجود الوقف التامّ في القرآن، وإنّ أواخر السور من أبينِ مواضعه، وقد زعم بعضُ مَنْ خَاضَ غَمْرةَ المناسبات ألّا وقف تامّ في القرآن، ولا على آخر سورة الناس، بل هي متّصلة -مع كونها آخر القرآن- بالفاتحة -التي هي أوّله- كاتصالها بما قبلها بل أشدّ، والذي دعاه إلى هذا القول الغريب أنه تغلغل في هذا الأمر؛ فَلَاحَ له أنَّ بين الآيات من التناسب ما يجعل الارتباط بينها شديدًا، وأنّ ذلك يقتضي أن يكون الوقف هنالك غير تامّ البتة، وليس الأمر كذلك»[(١)].

كذا ألمح إليها الدكتور/ محمود روزن فقال: «وبالجملة؛ فقد يقع التمام في أثناء الآية وإن كان قليلًا؛ لأنّ الآية عادة ما يرتبط معنى أوّلها بآخرها، وآخرها بأوّلها... فإن أُخِذَت المناسبات المعنوية في الاعتبار فربما عَزَّ وجود وقفٍ تامٍّ في أثناء الآية»[(٢)].

ولعلّ أوّل محاولة حقيقة لدفع هذا المشكل كانت من الشيخ الحصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حال كلامه عن الوقف التامّ في ثنايا الآيات، فقال -في بيان الانفصال

(١) التبيان لبعض المباحث المتعلّقة بالقرآن، لطاهر بن صالح الجزائري، مطبعة المنار بمصر، ط١، ١٣٣٤هـ، ص٢٦٩.

(٢) التأصيل والتقعيد لأقسام الوقف والابتداء، د. محمود روزن، ص١١٤.

المعنوي-: «فأنت ترى مِن هذه أنّ جملة... لا ارتباط لها بما قبلها من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى المطابقي الخاصّ»[(١)].

فقيّد الانفصال المعنوي بالمطابقي الخاصّ ليدفع ما قد يجول بخاطر القارئ من ثمة وجود ترابط بين أوّل الآية وآخرها، وهذا أحد أصول المعالجة كما سيأتي معنا.

المنهج المتبع في الدراسة:

اقتضت طبيعةُ البحث النظرَ في مسببات الإشكال، ومن ثم العمل على ضبط مفهوم الاتصال والانفصال بين العِلْمَيْن، والنظر في اختلاف الحيثية بينهما، وما يقتضيه ذلك من تحرير غاية علم المناسبة، ومِن ثم وَضْع أصول يتوصّل من خلالها لدفعِ المشكل المطروح.

خطة البحث:

جاء البحث في مُقدمة، ومبحثين، وخاتمة:

المقدمة: تناولتُ فيها إشكالية البحث وخطّته والهدف منه.

المبحث الأول: التعريف بعلمي المناسبة والوقف التام، وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول**: في بيان علم المناسبة، ويحتوي على:

(١) معالم الاهتداء، للحصري، ص٢٣.

أولًا: تعريفه، وأهميته، وأقوال العلماء فيه.

ثانيًا: أنواع المناسبات.

- **المطلب الثاني**: في بيان الوقف التام، ويحتوي على:

أولًا: بيان تمام الكلام.

ثانيًا: درجة انفصاله واتصاله.

ثالثًا: تعريف الوقف التام.

المبحث الثاني: التوفيق بين انفصال المعنى وترابط الآيات، ويحتوي على ثلاثة أصول:

الأصل الأول: مطابقة المعنى.

الأصل الثاني: اختلاف مفهوم الاتصال والانفصال.

الأصل الثالث: اختلاف الحيثية وتباين الغاية.

المبحث الأول: التعريف بعِلمي المناسبة والوقف التام:

المطلب الأول: في بيان علم المناسبة:

أولًا: تعريفه، وأهميته، وأقوال العلماء فيه:

تعريفه لغة: النون والسين والباء كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء، منه النَّسَب، سُمّي لاتصاله وللاتصال به[(١)]، والمُناسبة بضم الميم مصدر ومعناها في اللغة يدور حول المقاربة والمُشَاكلة، يُقال: فلانٌ يناسِبُ فُلَانًا، فَهُوَ نَسِيبه، أَي قَريبه. وتقول: ليس بينهما مناسبة، أي: مشاكلة[(٢)].

قال الزبيدي: «يُقال: بين الشيئين مُناسبةٌ وتَناسُب، أي: مُشاكلةٌ وتَشاكُل، وكذا قولهم: لا نِسْبَةَ بينهما، وبينهما نِسبةٌ قريبة»[(٣)].

واصطلاحًا: علمٌ تُعْرَفُ به وجوهُ ارتباط أجزاء القرآن بعضها ببعض، وقولُنا: (أجزاء القرآن) شامل للآية مع الآية، والحكم مع الحكم، والسورة مع السورة، والقصة مع القصة، وكلّ جزء من القرآن مع ما قارنه[(٤)].

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس، دار الفكر، ط١، ١٣٩٩هـ، (٥/ ٤٢٣).

(٢) لسان العرب، لابن منظور، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٣١٤هـ، (١/ ٥٧٧).

(٣) تاج العروس، للزبيدي، دار الهداية، (٤/ ٢٦٥).

(٤) علم المناسبات في القرآن، مقال للدكتور/ محمد بن عبد العزيز الخضيري، منشور بموقعه، تاريخ ٢٥ أغسطس ٢٠١٤م، https://tinyurl.com/3ve8yd3s.

فهو علمٌ يُعْرَفُ به وجهُ ارتباط الآيات ببعضها، واتصال القصة بما قبلها، بل وآخر السورة بأوّل التي تليها، وأولها بآخرها، وتناسُب ختام الآيات بما تضمنته الآيات، وغير ذلك من أنواع المناسبات المنصوص عليها.

قال الرازي -في تفسيره-: «أكثرُ لطائف القرآن مُودَعَةٌ في الترتيبات والروابط»(١).

وقال أيضًا: «ومَن تأمّل في لطائف نَظْمِ هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علمَ أنّ القرآن كما أنه معجِز بحسَب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضًا بسبب ترتيبه ونَظْم آياته»(٢).

وقال الزركشي: «واعلم أنَّ المناسبة عِلْمٌ شريف تُحْزَرُ به العقول ويُعرف به قدر القائل فيما يقول»(٣).

فهو علمٌ جليلُ القدرِ، عظيم النفع، يكشف أحد جوانب إعجاز القرآن الكريم، فهذا التناسق والتلاؤم في آياته يُؤكد ألوهية مصدره وحقِّية تَنْزيله(٤)؛ لذا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، (١٠/ ١٠٦).

(٢) مفاتيح الغيب، للرازي، (٧/ ١٠٤).

(٣) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٣٧٦هـ، (١/ ٣٦).

(٤) مصابيح الدرر، لعادل أبو علاء، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد: ١٢٩، ص٢٢.

يقول البقاعي: «وبهذا العلم: يرسخ الإيمان في القلب ويتمكّن من اللُّب؛ وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقتين؛ إحداهما: نَظْم كلّ جملة على حيالها بحسَب التركيب. والثانية: نَظْمها مع تَالِيتها بالنظر إلى الترتيب»[١].

كذلك معرفة المناسبة بين الآيات تساعد على حُسن التأويل، ودقّة الفهم، وإدراك اتّساق المعاني بين الآيات، وترابط أفكارها، وتلاؤم ألفاظها[٢].

وهذا الارتباط بين آي القرآن وسوره إمّا أن يكون ظاهرًا أو لا، فإن كان ظاهرًا فواضحٌ، ولا حاجة للتنصيص عليه ضمن المناسبات، فوجه الإعجاز الحقيقي في هذا العلم يكون في ربط الآيات والجُمَل والموضوعات التي لكلّ منها حقيقة مختلفة عن الأخرى في الظاهر، يقول السيوطي: «والذي ينبغي في كلّ آية أن يبحث أولّ كلّ شيء عن كونها تكملة لما قبلها أو مستقلّة، ثم المستقلّة ما وجه مناسبتها لما قبلها؛ ففي ذلك عِلْم جمّ»[٣]، فيُبحث في تناسب الآيات التي ظاهرها الاستقلال عن السابق واللاحق لها.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (١/ ٧).

(٢) المناسبات بين الآيات والسور، للدكتور/ سامي عطا، جامعة آل البيت، ص١٢.

(٣) معترك الأقران، للسيوطي، (١/ ٤٤).

أو يكون الارتباط غير ظاهر، بل يظهر أن كلّ جملة مستقلّة عن الأخرى، فلا بد حينها من دعامة تُؤْذن باتصال الكلام، وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط، فمنها:

١- التنظير، والمقصود أنّ الآيتين يجمعهما التناظر في المعنى، أو العلّة أو الحُكم، فمِن ذلك ما وقع أول سورة الأنفال في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنفال: ٥]، عقب حديثه عن الغنائم، فإنه تعالى كما أمَر رسوله أن يمضيَ لأمره في الغنائم على كُرْهٍ من أصحابه، كذلك أمَره بالخروج من بيته لطلب العِير أو القتال وهم له كارهون، بجامع الكراهة الواقعة منهم في الأمرين؛ قسمة الغنائم، والخروج للقتال.

٢- المضادّة، وهو كثير في القرآن، فيعقب ذكر المؤمنين ذكر الكافرين، وذكر الجنة ذكر النار، وغير ذلك.

٣- الاستطراد، كما في قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف: ٢٦]، هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذِكْر بدوّ السَّوْءات، وخَصْف الوَرَق عليها، إظهارًا للمنّة فيما خلق من اللباس، وإشعارًا بأنّ السّتر باب عظيم من أبواب التقى.

ويقربُ من الاستطراد حُسْنُ التخلّص، وهو الانتقال من معنى إلى آخر، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدّة

الالتئام بينهما؛ فمن ذلك ما وقع في سورة الشعراء بعد أن حكى قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]، تخلّص منه إلى وصف الميعاد بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨][(١)].

ثانيًا: أنواع المناسبات:

للمناسبة أنواع كثيرة وأقسام متعدّدة، لا يمكن حصرها والتعريج عليها في هذا المبحث العرضي؛ لذا سأُشير إليها على وجه الاختصار بما يتّضح معه المقصود ويتم به البيان، وليس المُراد من ذكرها تتميمَ المبحث وحَسْب، بل ذِكْرُ هذه الأنواع له صِلَةٌ وطيدة بالتوفيق بينه وبين الانفصال المعنوي في الوقف التام؛ لذا لن أعرِّج على أنواع المناسبات التي لا تتصل اتصالًا مباشرًا بالتعلّق المعنوي في الوقف التام؛ كمناسبة اسم السورة لمضمونها، والسورة بالتي تليها، مكتفيًا بالإشارة دون تفصيل، ومَن رام المزيد فلينظره في مظانّه، واللهُ الموفِّق.

أمّا المناسبات التي تتعلّق بالانفصال المعنوي في الوقف التام فهي على النحو الآتي:

(١) بتصرف من معترك الأقران للسيوطي، (١/ ٤٥- ٤٧).

أولًا: المناسبة بين الآيات في السورة الواحدة:

ويُراد به الآية والتي تليها، أو جملة آيات تَضَمَّنُ معنى واحدًا وما يليها، نحو قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨- ٧٠].

قال ابن عاشور: «ومناسبةُ الانتقال، أنّ الحرث إنما ينبت زرعه وشجره بالماء فانتقل من الاستدلال بتكوين النبات إلى الاستدلال بتكوين الماء الذي به حياة الزرع والشجر»[(١)].

ويشمل الارتباط بين الآيات أيضًا ما كان فيه تضاد وتقابل، مثل ذِكْر الرحمة بعد العذاب، والجنة بعد النار، والرغبة بعد الرهبة[(٢)]، نحو قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١]، ثم قال بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].

ومن ذلك أيضًا المناسبة بين حُكْمَين في الآيات أو الآية الواحدة، وذلك كما في آيات الاستئذان حين أعقبها بالأمر بِغَضّ البصر؛ فإنّ الاستئذان إنما

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، ط١، ١٤٠٤هـ، (٢٧/ ٣٢٣).

(٢) ينظر: معترك الأقران، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ، (١/ ٤٥).

جُعل من أجل أن لا يقع بصر المستأذِن على عورة، ولو صادف أنْ وقع فإنّ على المستأذِن أن يَغُضّ البصر، ثم إنّ العلاقة بين الحُكْمَيْن بيِّنة؛ إذْ فيهما ذِكْر ما تكون به العفة وحفظ العورات في المجتمع المسلم[1].

ثانيًا: مناسبة ترتيب القصص:

وهذا النوع يندرج تحته عدّة أنواع؛ كمناسبة القصة لمضمون السورة، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها، سواءٌ كان ورودها بعد قصة أم لا، وسأكتفي هنا بنوع واحد فقط.

- مناسبة القصة لِما بعدها وما قبلها:

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧- ٨٨].

وقعت بعد قصة سيدنا أيوب عليه السلام وما تضمّنها من الدعاء بكشف الضّر وفكّ الكرب، فخُتمت بقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وكذا الحال في قصة يونس عليه السلام بعد أن مسَّه الضّر ووقع عليه الكرب، ونداؤه ربَّه بكشف ما فيه من غمّ، فكان قوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ

(١) علم المناسبات في القرآن، مقال للدكتور الخضيري.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، فالمناسبة بين القصتين ظاهرة، جماعُها لطفُ الله بعباده الصالحين، واستجابتُه لمن لجأ إليه منهم، وإعانتُه لهم في وقت الضِّيق.

ثم أتبعها بعد ذلك بقصة زكريا عليه السلام وهو ينادي ربَّه فاستجاب لدعائه، وقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. فجامِعُ القصتين الاستعانةُ بالمولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والاستجابةُ لهما مع اختلاف النداءين، قال البقاعي: «ولمّا كان حاصل أمر يونس عليه السلام أنه خرج من بطنٍ لم يُعْهَد الخروجُ من مثله؛ عطفَ عليه قصة زكريا عليه السلام في هبته له ولدًا من بطن لم يُعْهَد الحملُ من مثله في العقم واليأس»[1].

(١) نظم الدرر، للبقاعي، (١٢/ ٤٦٨).

المطلب الثاني: في بيان الوقف التام:

تعتمد قسمة الوقف والابتداء في القرآن الكريم، وتبنى درجته على أمرين أساسين:

الأول: تمام الكلام، ووصول مراده إلى المتلقي.

الثاني: درجة اتصاله وانفصاله عمّا بعده.

أولًا: تمام الكلام:

والمقصود بتمام الكلام أن يكون الكلام مفهومًا، وبيان ذلك ألا يفتقر إلى ما بعده ليتّضح معناه، وتنجلي دلالته، فإن لم يكن الكلام مفهومًا فلا يصحّ الوقف عليه، ويندرج تحته الوقف القبيح على تعدّد درجاته[(١)].

ويشترط في تمام الكلام أن يكون وَفق مراد الله تعالى، فإن كان يعطي معنى على غير مراد الله فلا يصح الوقف عليه؛ نحو الوقف على قوله: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي﴾، والبدء بقوله: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]، وتقريرُ مخالفته لمرادِ اللهِ ظاهرٌ، وقد تناولها عددٌ من العلماء.

---

(١) ولا يعني هذا أنّ قبح الوقف منحصر فيما لم يتم معناه ويفهم مراده، فقد تكون المعاني تامة والوقف عليها قبيح، نحو الوقف على: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٤٣]، فهذا كلام تام في معناه، واضح مراده، ووجه قُبحه لا يخفى.

والمقصودُ بمراد اللهِ الظاهرُ المتبادرُ من نَظْم القرآن بما يقتضيه السياق القرآني، باعتماد الأوجه القويّة لغةً والنأي عن الأوجه الضعيفة والبعيدة، مما ينبني عليها تراكيب ركيكة، ومعاني فاترة هزيلة لا تتناسب مع أسلوب القرآن المتّسم بالفصاحة والقوّة وروعة البيان ودقة الأسلوب، فلا ينبغي للقارئ أن يُرَكِّب بوقفه وابتدائه على بعض الكلمات معانِيَ فوق أو دون ما يحتمله معنى الآية الكريمة، وأمثلة ذلك كثيرة، كالوقف على: ﴿فِيمَ﴾، والابتداء بـ: ﴿أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٣]، على معنى: فيمَ هذا السؤال؟! أنت من ذكراها، وعلامة من علاماتها، ودليل على دنوّ قربها.

وهذا -مع ما فيه من بُعد- مخالِف للظاهر المتبادر من نَظْم القرآن، يقول أبو حيان: «وهو تَفْكِيكٌ للكلام وخروج عن الظاهر المُتَبادِر إلى الفهم»[(١)].

وقال السمين: «وهو كلامٌ حَسَنٌ لولا أنه يُخالف الظاهر ومُفَكِّكٌ لنَظْم الكلام»[(٢)].

ولا يتوقّف هذا الشرط عند هذا الحدِّ فحَسْب، بل يشمل كلَّ وقفٍ قاصرٍ عن الإيفاء بمراد الله، حتى ولو لم يَنْبَنِ على وقفه معانٍ جديدةٌ، نحو الوقف على قوله: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٤]، إذْ ليس المراد هنا

(١) البحر المحيط، لأبي حيان، (١٠/ ٤٠٣).

(٢) الدر المصون، السمين الحلبي، دار القلم، دمشق، (١٠/ ٦٨٣).

الإخبار عن ادّعائهم الباطل عند اجتماعهم بالمؤمنين بأنهم معهم على طريقتهم ونفس منهجهم، بل المراد الإخبار عن نفاقهم، بادعائهم المولاة أمام المؤمنين، بينما إذا خَلَوْ إلى رؤسائهم وكبرائهم ظهرت حقيقتهم بأنهم معهم نَهْجًا وطريقة، وإنما قالوا ما قالوا أمام المؤمنين استهزاءً بهم وسخريةً منهم، وهذا المعنى لا يتّضح إلا بضمّ الموقفين معًا، وقراءة المقطع كاملًا.

والفرق بين هذا الوقف وما تقدّمه أنّ الأول رَكَّبَ معنى زائدًا غير مراد في الآية، بينما هنا كان قاصِرًا عن الوفاء بالمراد؛ لذا فالأول أشدّ تجاوزًا، وأَوْلَى بالمنع والرَّدِّ والتصويب، بينما الوقف هنا خلاف الأَوْلى فقط، بل لو وقفه قارئ واستأنف بما بعده فلا حرج عليه.

ثم اعلم أنّ تمام الكلام قد يكون تحقيقًا كما مَرّ، وقد يكون تقديرًا، وكونه مقدرًا يقتضي أن يكون الكلام في ظاهره غير تام، فلا يفهم مراده ولا يتضح مقصده.

فمثال تمام الكلام تحقيقًا -وهو الأكثر- الوقف على قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ٢٠].

ومثال كونه مقدرًا الوقف على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١].

فالكلام -في ظاهره- ناقص غير تامّ؛ وذلك لأنّ جواب «وَلَوْ» محذوف، تقديره: «لَكَانَ هذا القرآن».

قال الزمخشري: «﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانًا﴾ جوابه محذوف، كما تقول لغلامك: لو أني قمتُ إليك، وتترك الجواب، والمعنى: ولو أنّ قرآنًا سُيِّرت بِهِ الجِبالُ عن مقارّها، وزعزعت عن مضاجعها أو قُطِّعَت بِهِ الأَرضُ حتى تتصدّع وتتزايل قِطَعًا أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوتى فتسمع وتجيب؛ لَكَان هذا القرآن لكونه غايةً في التذكير ونهايةً في الإنذار والتخويف»[1].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ [فصلت: ٤١]، فجواب «إنّ» محذوف في قول بعضهم، والكلام لا يتم دونه، وتقديره: مُعَذَّبون، أو مُهْلَكون، أو معانِدون[2]، فيجوز الوقف على هذا التقدير.

قال أبو حيان: «وحذف خبر إنّ وأخواتها لفهم المعنى جائز، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾»[3].

(١) الكشاف، للزمخشري، (٢/ ٥٢٩).

(٢) الدر المصون، للسمين الحلبي، (٩/ ٥٢٩).

(٣) البحر المحيط، (٥/ ٢٥٤).

فإذا كان الوقف على كلام غير تامّ في ظاهره لغير ضرورة جائزًا، ففي الضرورة كانقطاع النَّفَس والنسيان وغيره جائزٌ من باب أَوْلَى، والله أعلم.

ثانيًا: درجة اتصاله وانفصاله:

كذلك تعتمد رُتبة الوقف والابتداء على مدى تعلّق الكلمة بما بعدها لفظًا ومعنى، فإنْ كانت منفصلة عمّا بعدها لفظًا ومعنى فهو أعلى درجات الوقف، وهو الوقف التام، وهو محور حديثنا.

وإن انفصلتْ عمّا بعدها لفظًا لا معنى، فهو الكافي، وإن اتصلتْ بما بعدها لفظًا ومعنى فهو الحَسَن[1]، ولا يخفى اشتراط تمام الكلام في الأخير، وإنما اشترطوا تمام الكلام في الأخير دون الأول والثاني -وإن كانوا يشتركون جميعًا فيه- لأنّ الانفصال اللفظي في التام والكافي يلزم منه تمام الكلام، بخلاف الحَسَن، ومن ثَمّ اشترط العلماء تمام الكلام فيه.

والمقصود بالتعلّق المعنوي أن يكون ثَمَّ ارتباطٌ من جهة المعنى بين الكلمة الموقوف عليها مع ما قبلها أو ما بعدها، كالإخبار عن أحوال المؤمنين، وذكر أحوال أهل الجنة والنار، وغير ذلك.

---

(١) ينظر: النشر، (٢/ ٥٧).

والمقصود بالتعلّق اللفظي هو التعلّق من ناحية الإعراب، كأن تكون الجملة معطوفة على ما قبلها أو حالًا منها أو صفة لها، أو غير ذلك من التعلّقات اللفظية[١].

قال الشيخ الحصري: «ومما ينبغي أن يُعْلَم أنه لا يلزم من وجود التعلّق في المعنى التعلّق في اللّفظ، بخلاف التعلّق في اللفظ؛ فإنه يلزم منه التعلّق في المعنى»[٢].

ثالثًا: تعريف الوقف التام:

الوقف التام: هو الوقف على كلام تمّ في معناه، وانفصل عمّا بعده لفظًا ومعنى[٣].

وقد تقدّم أنّ الانفصال المعنوي يلزم منه الانفصال اللفظي؛ لذا لو اكتفينا بانتفاء التعلّق المعنوي في اصطلاح التام لكان وافيًا، واصطلاح الداني أقرب ما

---

(١) ينظر: معالم الاهتداء إلى معرفة الوقوف والابتداء، محمود خليل الحصري، مكتبة السنة – مصر، ط١، ١٤٢٣هـ، ص٢٨، منار الهدى في بيان الوقف والابتدا، عبد الكريم الأشموني، دار الكتب العلمية – بيروت، ص٢٧.

(٢) معالم الاهتداء، للحصري، ص٢٨.

(٣) ينظر: النشر، محمد بن الجزري، دار ابن حزم، تحقيق: خالد أبو الجود، (٢/ ٥٧).

يكون إلى هذا، حيث قال: «اعلم أنّ الوقف التام هو الذي يَحْسُن القطع عليه والابتداء بما بعده؛ لأنه لا يتعلّق بشيء مما بعده»[١].

فنفَى التعلّق جُمْلَةً، دون التنصيص على نوعه، وقوله: «يَحْسُن» فيه دلالة على عدم حتمية الوقف على هذا النوع من الوقف، بل يجوز وصل الكلمة بما بعدها؛ نظرًا إلى أنه لا يترتّب على وَصْلها بما بعدها خَلَل في المعنى أو إيهام خلاف المراد، وإن كان الوقف عليها أَوْلَى من وصلها بما بعدها، باعتبار تمام الكلام وعدم تعلّقه بما بعده لفظًا ومعنى[٢].

وعلى الرغم من أنّ الوقف التام أعلى مراتب الوقوف في القرآن الكريم؛ لكمال انفصاله عمّا بعده فإنه أقلّها ورودًا؛ وذلك لأنّ القصة قد تحتمل في ثناياها عددًا من الوقوف الحَسَنة والكافية، بينما لا يكون التمام إلا في آخرها.

وأكثر ما يكون هذا الوقف في رؤوس الآي، وعند انتهاء القصص، ويندر وجوده في ثنايا الآيات.

(١) المكتفَى في الوقف والابتدا، أبو عمرو الداني، دار عمار، ط١، ١٤٢٢هـ، ص٨.

(٢) معالم الاهتداء، للحصري، ص١٦.

المبحث الثاني: التوفيق بين انفصال المعنى وترابط الآيات:

ومحاولة التوفيق بين الانفصال المعنوي في الوقف التام، واتصال الآيات وترابطها ووحدة موضوعها في علم المناسبة سيكون من خلال ثلاثة أصول، كلّ منها يؤدِّي إلى الآخر؛ لذا يمكن اعتبارها أصلًا واحدًا ذا فروع متعدّدة.

الأصل الأول: مطابقة المعنى:

الطاء والباء والقاف أصلٌ صحيحٌ واحد، وهو يدلُّ على وضع شيء مبسوط على مِثله حتى يُغَطِّيَه، تقول: أطبَقْتُ الشيءَ على الشيء، فالأول طَبَق للثاني[١]، وقد طابَقْت بين الشَّيْئَيْنِ: إذا جَعَلْتهما على حَذْوٍ واحد[٢].

ويُقْصَد بمطابقة المعنى المماثلةُ والموافقة الخاصّة في المعنى بين الآيات، فالاتصالُ المعنوي المعنيُّ في علم الوقف والابتداء ذلك المعنى المُطَابق الخاصّ، الظاهر للناظر دون تَقَصٍّ وتدقيق، وإعمال فِكْر وبحث، بينما عِلْم المناسبة يعتمد على تلك الروابط الخفية، التي تحتاج إلى تأمّل وتدبّر وإعمال فِكْر وذِهْن ليقف القارئ عليها.

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس، (٣/ ٣٤٤).

(٢) المحيط في اللغة، لابن عباد، (١/ ٤٥٨).

لذا قال أبو بكر النيسابوري: «إنّ إعجاز القرآن البلاغي لم يرجع إلّا إلى هذه المناسبات الخفية والقوية بين آياته وسوره، حتى كأنّ القرآن كلَّه كالكلمة الواحدة ترتيبًا وتماسُكًا»(١).

وقال الشيخ عبد الرحمن حبَنَّكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلى المتدبّر أن يبحث ويتأمّل حتى يكتشف المناسبة»(٢).

وقال أيضًا: «وعلى المتدبّرِ عميقِ التفكير أن يكتشف ويحلّل ويبرز عناصر الترابط»(٣).

فهي مناسبات خفية، ولطائف مضمرة في ثنايا الكلام، لا يقف عليها إلا أهل العلم وذوو البصيرة، بينما يعمد علم الوقف والابتداء إلى تلك المعاني الجلية والمفاهيم الواضحة، التي يدركها القارئ دون مؤونة، ويقف عليها عامّة طلاب العلم.

(١) نقلًا عن: المناسبات بين الآيات والسور، للدكتور/ سامي العطا، ص١٣.

(٢) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، عبد الرحمن حسن حبنّكة، دار القلم، دمشق - بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م، ص١٠.

(٣) قواعد التدبر الأمثل، عبد الرحمن حبنّكة، ص١٢.

ويمكن القول: إنّ روابط علم المناسبة لا يقف عليه إلا العلماء، بينما المعاني المعنية في علم الوقف والابتداء يقف عليها عامّة طلاب العلم، بل وربما عامّة الناس أيضًا.

وأول مَنْ أشار إلى هذا الأصل الشيخ الحصري (١٤٠١هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في حديثه عن الوقف التام في ثنايا الآيات، فقال: «فأنت ترى من هذه أن جملة... لا ارتباط لها بما قبلها من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى المطابقي الخاصّ»[(١)].

التمثيل:

سيتم التمثيل لهذا الأصل في رؤوس الآي وفي ثناياها.

أولًا: في رؤوس الآي:

المثال الأول:

من ذلك آي سورة الفاتحة، حيث ذكر علماء الوقف والابتداء في سورة الفاتحة عددًا من الوقوف التامّة، قال الأشموني: «وفيها ثلاثة وعشرون وقفًا، أربعة تامة... فالتامّة أربعة: البسملة، والدِّين، ونَسْتَعِين، والضّالّين»[(٢)].

---

(١) معالم الاهتداء، للحصري، ص٢٣.

(٢) منار الهدى، للأشموني، ص٧٢.

وكذا عدّ الداني وغيره تلك المواقف من التامّة[١]، أمّا الوقف على (البسملة) فلأنها لا تعلّق لها بما بعدها، والوقف على ﴿ٱلدِّينِ﴾ تام باعتبار الانتقال من الغَيبة إلى الخطاب[٢]، وكذلك على ﴿نَسۡتَعِينُ﴾ لأنه انقضاء الثناء على الله تعالى[٣]، أمّا الوقف على ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ فلأنه نهاية السورة.

أمّا علماء المناسبة فيعتبرون آيات السورة مترابطة دون فصل؛ لأنهم ينظرون إلى الوحدة الموضوعية، ويعتبرون المعنى الرئيس الذي تدور حوله السورة؛ ولذا سنتناول ربطهم تلك الوقوف بما بعدها.

قال البقاعي -في ربط تلك المواقف التامّة-: «فلمّا استجمع الأمر استحقاقًا وتحبيبًا وترغيبًا وترهيبًا كان من شأنِ كلّ ذي لُبٍّ الإقبالُ إليه، وقصر الهمم عليه، فقال -عادلًا عن أسلوب الغَيبة إلى الخطاب لهذا، مقدمًا للوسيلة على طلب الحاجة لأنه أجدر بالإجابة- ﴿إِيَّاكَ﴾ أي: يا مَن هذه الصفات صفاته...»[٤].

---

(١) ينظر المكتفَى، للداني، ص١٧. والمرشد، الحسن بن سعيد العماني، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ، (١/ ١١٩).

(٢) المرشد، للعماني، (١/ ١١٩).

(٣) المكتفى، للداني، ص١٧.

(٤) نظم الدرر، للبقاعي، (١/ ٣٧).

وقال -في ربط ﴿نَسْتَعِينُ﴾ بما بعده-: «وفي الآية ندب إلى اعتقاد العجز واستشعار الافتقار والاعتصام بحوله وقوّته، فاقتضى ذلك توجيه الرغبات إليه بالسؤال، فقال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ تلقينًا لأهل لطفه، وتنبيهًا على محلّ السلوك الذي لا وصول بدونه»(١).

لكنْ ثمة اتصال معنوي ظاهر بين الآيات؛ يجعل تمام الوقف محلّ نظر، وقد تنبّه العماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا الاتصال فحاول الجمع بينه وبين وجود التمام في تلك المواقف، فقال: «وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هو تام أيضًا، إلا أنه ليس الآخر؛ لأن قبله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، هو كلام متوجهٌ نحو المخاطب، وقوله: ﴿ٱهْدِنَا﴾ مسألة من المخاطب، فمن حيث إنّ الكلام كلّه صادر عن المتكلّم إلى من يواجهه كان فيه بعض التعلّق بما قبله، وكان الوقف الآخر أتم منه، ومن حيث إنّ قوله: ﴿ٱهْدِنَا﴾ هو طلب ومسألة، وهي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إخبار من العبد بما يفعله؛ صار قوله: ﴿نَسْتَعِينُ﴾ وقفًا تامًّا؛ لانتقاله من الإخبار إلى الطلب والحاجة، فكأنّه انتقل من كلام إلى آخر»(٢).

(١) نظم الدرر، للبقاعي، (١/ ٣٧).

(٢) المرشد، للعماني، (١/ ١٦)، والذي يميل إليه البحث أنه لا وقف تام في سورة الفاتحة إلا على البسملة وفي آخرها، فالمخاطَب في أول السورة هو المخاطَب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، والمخاطب في قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ هو المخاطب في قوله: ﴿ٱهْدِنَا﴾، نعم؛ المعتبر في الوقف والابتداء هو =

المثال الثاني:

ومن ذلك الوقف على ﴿خَبِيرٌ﴾ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨٠- ١٨١].

وبيان تمامه أنّ الآية الأولى تتحدّث عن الأغنياء البخلاء الذين يُمْسِكون أيديَهم ولا ينفقون في سبيل الله ولا في وجوه الخير، وما يلحقهم من نكال وتعذيب.

والآية الثانية لها معنى آخر يتضمّن سماع الله مقالة اليهود القبيحة الشنيعة التي قالوا فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾؛ ولذلك يطلب القرضَ منّا ويدعونَا للإنفاق[1].

=

المعنى المطابق، لكن ينبغي أن ينتفي ذلك الاتصال المعنوي الظاهر في الوقف التام، والاعتبارات التي ذكرها العلماء تسويغًا للتمام هنا إنما تكون للمفاضلة في درجة الوقف الكافي، فتلك الاعتبارات تجعل هذا الوقف أكفى من غيره، ولا ترقّيه للتمام بحال.

(١) ينظر: فتح القدير، محمد بن عليّ الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق = بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، (١/ ٤٦٥). وتيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السعدي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ، ص١٥٨.

أمّا المناسبة بينهما، فجِماع الآيتين الحديثُ عن البُخْل، قال ابن عاشور: «استئناف جملة: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ لمناسبة ذِكْر البخل؛ لأنهم قالوه في معرض دفع الترغيب في الصدقات»(١).

وتتجلى المناسبة أيضًا في قول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، بجامع الوصفين للبخلاء المُمْسِكين أموالَهم، واليهود، فما تبخلون به من مال هو محضُ تفضّل من الله عليكم، وكذلك اليهود؛ لأنهم قالوا مقالتهم الشنيعة في معرض طلب الإنفاق، أي: كيف تنعتونه بالفقر وما بكم من نعمةٍ ومالٍ إنما هو محضُ تفضّل من الله عليكم، وذلك كما في قوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

ومن المناسبة بين الآيتين أيضًا قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، في مقابل قولهم الساقط، ونعتهم الفاحش لمن له ملك السماوات والأرض، أي: كيف تنعتونه بالفقر وإليه تؤول جميع الأملاك؟!

المثال الثالث:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١٠- ١١].

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٤/ ١٨٣).

فالوقف على ﴿سَعِيرًا﴾ تام، نصَّ على تمامه أبو جعفر النحاس[١]، والدّاني[٢]، وزكريا الأنصاري[٣]، والأشموني[٤]، وغيرهم؛ وذلك لانتفاء التعلّق المعنوي بينها وبين الآية التي تليها، وبيان ذلك أنها نهاية الإخبار عن أولئك الذين يعتدون على أموال اليتامى، ويأخذونها بلا حقّ شرعي، وما بعدها له معنى آخر يتضمّن تفصيلًا لأحكام المواريث، فانتفى تعلّق المعنى المطابق بين الآيتين.

أمّا وجه ارتباط الآية بما قبلها، فقال أبو حيان: «لما أبهم في قوله: ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧] في المقدار والأقربين؛ بَيَّن في هذه الآية المقادير، ومَن يرث من الأقربين»[٥].

وقال البقاعي: «ولما تم ذلك تشوّفَت النفوس إلى بيان مقادير الاستحقاق بالإرث لكلّ واحد، وكان قد تقدّم ذِكْر استحقاق الرجال والنساء من غير تقييد

---

(١) القطع والائتناف، للنحاس، ص٨٠.

(٢) المكتفى، للداني، ص٤٩.

(٣) المقصد، لزكريا الأنصاري، ص٢٠٥.

(٤) منار الهدى، للأشموني، ص٢٠٥.

(٥) البحر المحيط، لأبي حيان، (٣/ ٥٣٤).

يتيم، فاقتضت البلاغة بيان أصول جميع المواريث، وشفاء العليل بإيضاح أمرها»[1].

فأنت ترى أنّ هذا الترابط بين هذه الآية وما تقدّمها من آيات لا يمنع ذلك الانفصال في المعنى المطابق بينها وبين الآية السابقة.

ومما يؤكّد ذلك الأصل تَنْصِيصُهم على مواقف تامّة بين ثنايا القصة الواحدة، وذلك إذا تعدّدت المواقف وتنوّعت الأحوال المتناولة فيها، فيعدُّون الوقف على كلّ حال منها وقفًا تامًّا، رغم وحدة موضوع القصة كلّها.

قال المرعشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يلزم أن يكون طائفة من الكلّ متعلّقة بشيء واحد أن لا يوجد الوقف التام في أثنائها، وإنما يَلْزم ذلك إذا كانت جميع تلك الطائفة من الكلام متعلّقة بحال واحد لذلك الشيء الواحد، وأمّا إذا كانت متعلقة بحالين أو أكثر لذلك الشيء فالوقف على تمام كلّ حال تام؛ ففي البقرة إلى: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ متعلّق بحال واحد للمؤمنين، وهو التقوى، وإلى: ﴿عَظِيمٌ﴾ متعلق بحال واحد للكافرين، وهو عدم إيمانهم في المستقبل، وإلى: ﴿يَكْذِبُونَ﴾ متعلق بحال واحد للمنافقين، وهو مخادعتهم في إبطان كفرهم؛ ولذا قال الداني: «الوقف على ﴿يَكْذِبُونَ﴾ كافٍ، وقيل: تام؛ لأنه آخر

(١) نظم الدرر، للبقاعي، (٥/ ٢٠٣).

القصة»[1]، وإلى: ﴿لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ متعلّق بحال آخر للمنافقين، وهو فسادهم؛ ولذا قال الداني: «الوقف على ﴿لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ كافٍ، وقيل: تام، ﴿فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ كافٍ، وقيل: تام، ﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ تام، ﴿قَامُواْ﴾ كافٍ، وقيل: تام، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تام»[2]، أقول: وبالجملة يوهم كلام عليّ القاري[3] أن الإتمام فيما يتعلّق بالمنافقين لا يكون إلا على ﴿قَدِيرٞ﴾ وليس كذلك، نعَم الوقف عليه أتمّ، فالوقف التام قد يوجد في أثناء ما يتعلّق بشيء واحد، نعَم لا يوجد الوقف الأتم إلا عند تمام ما يتعلّق به»[4].

كذلك إذا كانت القصة تتناول في ثناياها قصصًا متعدّدة، كما هو الحال في قصة موسى عليه السلام، وكذلك في سورة يوسف عليه السلام، كان المقتضى أن لا يكون التمام قبل نهاية القصة، لكن لما كانت القصة تتناول في ثناياها قصصًا متعدّدة كان التمام في أثنائها، فقصة رؤياه تتم عند: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [يوسف:

(١) المكتفى، للداني، ص١٩.

(٢) المكتفى، ص١٩، ٢٠.

(٣) قال عليّ القاري: «في أول سورة البقرة مثلًا فإنه لا يتم إلا عند قوله: ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، ثم أحوال الكافرين يتم عند قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، ثم تمام أحوال المنافقين عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾»، المنح الفكرية، ص٢١٥.

(٤) بيان جهد المقل، المرعشي، مؤسسة قرطبة، ص٢٢١- ٢٢٢.

٦]، وقصة تدبير إخوته إبعاده عن أبيه تتم عند قوله: ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾، وقصة ما فعلوه تتم عند: ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾، وهكذا إلى آخر ما يتعلق به[1].

فلمّا تعدّدت الأحوال في الموضوع الواحد وتنوّعت المواقف كان الوقف على كلّ حال منها تامًّا، مع اتحاد موضوعها، وارتباط نَظْم آياتها، وكلّ ذلك يؤكّد ذلك الأصل، ويرسّخ لذلك المفهوم.

ثانيًا: في ثنايا الآيات:

لما كان وجودُ المواقف التامّة في ثنايا الآيات عزيزًا؛ كان لزامًا النصُّ على كلّ موقف منها تحت كلّ أصل يُذكر، بخلاف رؤوس الآيات؛ فإنّ تمام الوقف فيها كثير، والأمثلة عليه غير خافية.

المثال الأول:

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

فالوقف على ﴿وَٱلۡحَجِّ﴾ تام؛ لأن صدر الآية يتحدّث عن حكم الأهلّة، والمعنى: يسألك بعض الناس عن الحِكْمة من خَلْقِ الأهلّة، قل لهم -يا

(١) جهد المقل، للمرعشي، ص٢٢٢- ٢٢٣.

محمد- إن الله تعالى قد خلقها لتكون معالم يُوَقِّتُ ويحدّد بها الناسُ صومَهم، وزكاتَهم، وحجَّهم، وعِدّةَ نسائهم، ومُدَدَ حملهنّ، ومُدّةَ الرضاع، وغيرَ ذلك مما يتعلّق بأمور معاشهم[(١)].

أمّا عَجُزُها فيتحدّث عن حُكم إتيان البيوت من أبوابها، فانتفى بذلك التعلّق المعنوي الظاهر المطابق.

وقد استشكل أهل المناسبة الترابط بينهما، فقال السيوطي: «ومن ذلك[(٢)] قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾، فقد قيل: أيّ رابطٍ بين أحكام الأهلّة وبين حُكم إتيان البيوت من أبوابها؟

وأُجيب بأنه من باب الاستطراد، لمّا ذكر أنها مواقيت للحج، وكان هذا من أفعالهم في الحج -كما ثبت في سبب نزولها- ذَكَرَ معه من باب الزيادة في الجواب على ما في السؤال على حدّ: سُئل عن ماء البحر، فقال: (هو الطَّهُورُ ماؤُه الحِلّ مَيْتَتُه)»[(٣)].

وقال ابن عاشور: «ومناسبة هذه الجملة للتي قبلها أنّ سبب نزولها كان مواليًا أو مقارنًا لسبب نزول الآية التي قبلها، وأنّ مضمون كلتَا الجُملتين كان

(١) التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة، الفجالة – القاهرة، (١/ ٤٠٣).

(٢) أي: من الآيات المشكل مناسبتها، كما نصّ على ذلك بداية حديثه، ينظر: معترك الأقران، (١/ ٤٩).

(٣) معترك الأقران، للسيوطي، (١/ ٥١).

مثار تردّد وإشكال عليهم، من شأنه أن يُسأل عنه، فكانوا إذا أحرموا بالحج أو العمرة من بلادهم جعلوا من أحكام الإحرام ألا يدخل المحرِم بيته من بابه أو لا يدخل تحت سقف يحولُ بينه وبين السماء، وكان المحرِمون إذا أرادوا أَخْذَ شيء من بيوتهم تَسنَّمُوا على ظهور البيوت، أو اتخذوا نقبًا في ظهور البيوت إنْ كانوا من أهل المدر، وإن كانوا من أهل الخيام دخلوا من خلف الخيمة»[(١)].

المثال الثاني:

الوقف على: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

ووجه انتفاء الاتصال المعنوي المطابق هنا أنه أخبر في صدر الآية أنه المالك للسماوات والأرض المتحكّم فيهما، وذلك تقرير لكمال سعته وشمول قدرته، ثم أخبر بعد ذلك أنه أوصى الذين مِن قبلِنا كما أوصانا، وأمَرهم كما أمَرنا بتقوى الله تعالى[(٢)].

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢/ ١٩٧).

(٢) فتح القدير، للشوكاني، (١/ ٦٠٣).

قال النحاس: «والتمام: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠]، وكذا: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٣١]، أي: ولله ما حوَته السماوات والأرض؛ فارغبوا إليه في التعويض ممن فارقتموه؛ فإنه يَسُدّ الفاقة، ويلُمّ الشّعث، ويُغنِي كلًّا من سَعَتِهِ، يُغني الزوجَ بأن يتزوّج غيرَ مَن طلّق، أو برزقٍ واسع، وكذا المرأةَ، فعلى هذا تم الكلام، ثم ابتدأ المخاطبة للذين سَعَوا في أمر ابنِ الأُبَيْرِقِ، فقال -جلّ وعزّ-: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾»[(١)].

أمّا وجه ارتباط أول الآية بآخرها فهو أنّ مَن له ملكيّة السماوات والأرض هو مَن له حقّ الوصية في ملكه، فصاحب السلطان الحقيقي هو الذي يُخشى ويُخاف، وتقوى الله هي الكفيلة بصلاح القلوب، وحرصها على منهجه في كلّ جزئياته[(٢)].

وجمع ابن عاشور بين الانفصال المعنوي المطابق وبين الارتباط بين الآيات، فقال: «جملة: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ معترضة بين الجُمَل التي قبلها، المتضمنة التحريض على التقوى والإحسان وإصلاح الأعمال؛ من قوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَإِن

(١) القطع والائتناف، للنحاس، ص١٨٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط١، ١٣٩٨هـ، (٢/ ٧٧٢).

تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [النساء: ١٢٩]، وبين جملة: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا﴾ الآية، فهذه الجملة تضمّنت تذييلاتٍ لتلك الجُمَل السابقة، وهي مع ذلك تمهيد لما سيُذكر بعدها من قوله: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إلخ؛ لأنها دليل لوجوب تقوى الله»[(١)].

المثال الثالث:

الوقف على: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

نصَّ على تمامه النحاس والأشموني، قال أبو جعفر النحاس: «قال أحمد بن موسى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تمامُ الكلام، وكذا روى عن نافع»[(٢)].

وذلك أنّ صَدْرَ الآية يتضمّن بُشرى الله لعباده الصالحين بما تقدّم ذِكرُه من روضات الجنات، وما فيها من الأنهار المتدفّقة، والمناظر الحسنة[(٣)]، وعَجُزَها تضمّن أمْرَ الله لنبيّه ﷺ أن يقول لقومه: لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٥/ ٢١٩).

(٢) القطع والائتناف، للنحاس، ص٦٣٤.

(٣) ينظر: تفسير السعدي، ص٧٥٧.

الإيمان والطاعة إلا أن تؤدّوا ما بيني وبينكم من قرابة، فأنتم قومي، وأحقّ من أجابني وأطاعني، فإن أبَيتم ذلك، فلا أقَلّ من أن تحفظوا قرابتي وتصِلُوا رحمي.

فأنت ترى أنّ جملة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ منفصلة عمّا بعدها من حيث المعنى المطابق في الآية[1].

أمّا وجه ترابط أول الآية بآخرها فيقول البقاعي: «ولما كانت العادة جارية بأنّ البشير لا بدّ له من حياء وإنْ لم يَسأل؛ لأنّ بشارته قائمة مقام السؤال... كان كأنّه قيل: ماذا تطلب على هذه البشارة؟ فأُمِرَ بالجواب بقوله: ﴿قُل﴾ أي: لمَن توهَّم فيك ما جرت به عادةُ المبشِّرين: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ أي: الآن ولا في مستقبل الزمان، ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: البلاغ بشارة ونذارة، ﴿أَجْرًا﴾ أي: وإنْ قَلَّ، ﴿إِلَّا﴾ أي: لكن أسألكم، ﴿ٱلْمَوَدَّةَ﴾ أي: المحبة العظيمة الواسعة»[2].

(١) ينظر معالم الاهتداء، للحصري، ص٢٣.

(٢) نظم الدرر، (١٧/ ٢٩٥).

الأصل الثاني: اختلاف مفهوم الاتصال والانفصال:

والمقصود أنّ معيار الاتصال والانفصال، ومفهوم الربط والفصل مختلَف فيه بين عِلْم الوقف وعلم المناسبة، ففي عِلْم الوقف والابتداء يعتمدون المعاني المماثلة، والمفاهيم الموافقة في تقرير الاتصال والانفصال، أمّا في علم المناسبة فقد يكون من معاني الترابط ومفاهيم الاتصال التضاد والتقابل، فالمعنى وضدّه، والحالة وعكسها يُعَدُّ من الروابط، بل والانتقال من حديث إلى آخر يعدُّ من الاتصال والروابط، كذِكْر المؤمنين والكافرين، والخير والشّر، والعلم والجهل، والظلمات والنور، وطريق الهداية وطريق الغواية، ومصير الكافرين ومصير الأتقياء المؤمنين، والظُّلم والعدل، والبخل والإنفاق، والطيِّب والخبيث[(١)]، كلّ ذلك يعدّ من التناسب بين الآيات، في حين أنه يعدّ من الانفصال المعنوي بين الآيات عند علماء الوقف والابتداء.

قال أبو جعفر النحاس: «فهذا تعليم التمام توقيفًا من رسول الله ﷺ بأنه ينبغي أن يقطع على الآية التي فيها ذكر الجنة والثواب، ويفصل ما بعدها إن كان بعدها ذكر النار أو العقاب»[(٢)].

---

(١) التناسب في أسلوب القرآن الكريم، مقال للدكتور/ حكمت الحريري، موقع مداد، بتاريخ ٢٧ شوال ١٤٢٨، https://tinyurl.com/yckkp3sh .

(٢) القطع والائتناف، للنحاس، ص١٤.

وقال الداني: «إِذْ ظاهره دالّ على أنه ينبغي أن يقطع على الآية التي فيها ذِكْر النار والعقاب، ويفصل مما بعدها إن كان بعدها ذِكْر الجنة والثواب، وكذلك يلزم أن يقطع على الآية التي فيها ذِكْر الجنة والثواب، ويفصل مما بعدها أيضًا إن كان بعدها ذِكْر النار والعقاب»(١).

فذلك عند علماء الوقف أعلى درجات الانفصال، وأوفى مراتب التمام، بينما يُعَدُّ عند علماء المناسبات من التناسب والترابط. قال السيوطي -متحدثًا عن روابط الآيات-: «ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما عامّ أو خاصّ، عقلي أو حِسّي أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع علاقات التلازم الذهنيّ؛ كالسبب والمسبب، والعلّة والمعلول، والنظيرين والضدّين ونحوه»(٢).

وقال أيضًا: «ذكر الآية بعد الأخرى، إمّا أن يكون ظاهر الارتباط لتعلّق الكلام بعضه ببعض... وإمّا ألا يظهر الارتباط، بل يظهر أن كلّ جملة مستقلة عن الأخرى، وأنها خلاف النوع المبدوء به، فإمّا أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشركة في الحكم، أو لا، فإن كانت معطوفة فلا بد أن يكون بينهما جهةٌ جامعة على ما سبق تقسيمه، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ

(١) المكتفى، للداني، ص٣.

(٢) معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، (١/ ٤٤- ٤٥).

﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]؛ للتضاد بين القبض والبسط، والولوج والخروج، والنزول والعروج، وشبه التضاد بين السماء والأرض، وممّا العلاقة فيه التضاد ذِكْرُ الرحمةِ بعد ذِكْر العذاب، والرغبةِ بعد الرهبة»[(١)].

وعدّ السيوطي التضاد من القرائن المعنوية للربط بين الآيات، وقد تقدّم ذِكْرها في المبحث الأول.

التمثيل:

أولًا: في رؤوس الآيات:

المثال الأول:

الوقف على قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

فالوقف على ختام الآية تام؛ لانقضاء الحديث عن الكافرين، وما لحقهم من تنكيل وعذاب، والآية التالية تتناول أحوال المؤمنين المتّقين، وما أعدّه اللهُ لهم من نعيم مقيم، وقد أجمع علماءُ الوقف على تمام هذا الوقف[(٢)].

---

(١) معترك الأقران، للسيوطي، (١/ ٤٤- ٤٥).

(٢) ينظر: إيضاح الوقف والابتداء، أبو بكر الأنباري، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط١، ١٩٣٠هـ، (٢/ ٩٦٣). والقطع والائتناف، للنحاس، ص٧٨٢. والمكتفى، للداني، ص٢٢٩. والمقصد، لزكريا الأنصاري، ص٨٢٧. ومنار الهدى، للأشموني، ص٨٢٧.

وكما تقرّر، يَعُدُّ علماءُ المناسبة هذا الانتقالَ في المعنى والاختلافَ بين الحالين؛ من الروابط، يقول البقاعي: «ولمّا ذكَر جزاء الكافرين وأشعَر آخرُه بكونه إخزاءً؛ ذكَر جزاء المؤمنين المخالفين لهم، فقال مستأنِفًا مؤكِّدًا لتكذيب الكافرين به: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [النبأ: ٣١]»(١).

ويقول ابن عاشور: «جرى هذا الانتقالُ على عادة القرآن في تعقيب الإنذار للمنذَرين بتبشير مَن هُم أهلٌ للتبشير، فانتقل من ترهيب الكافرين بما سيلاقونه إلى ترغيب المتقين فيما أعدّ لهم في الآخرة من كرامة ومن سلامة مما وقع فيه أهل الشرك، فالجملة متصلة بجملة: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٢١- ٢٢]. وهي مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا بمناسبة مقتضي الانتقال»(٢).

المثال الثاني:

ما وقع في أول سورة البقرة، فقد تضمّن وصْفًا لثلاث طوائف: المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، مما يتعيّن تمام الوقف عند نهاية كلّ طائفة، فالوقف التام الأول عند قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] آخر صفات المؤمنين، والوقف التام التالي عند قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ

(١) نظم الدرر، للبقاعي، (٢١/ ٢٠٩).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٣٠/ ٤٣).

عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧] آخر صفات الكافرين، والوقف الأتم التالي عند قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] آخر صفات المنافقين.

قال مجاهد: «مِن أول البقرة أربعُ آيات في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين وثلاثَ عشرةَ في نعت المنافقين، قال أبو جعفر: فهذا أحسن من قول مجاهد وهذه التمامات الثلاثة من أحسن ما في هذه الآيات»[(١)].

وقال الداني: «فأتم ما في العشرين: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، و﴿عَظِيمٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾»[(٢)].

وقال الأشموني: «﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تام: وجه تمامه أنه انقضاء صفة المتقين وانقطاعه عمّا بعده لفظًا ومعنى، وذلك أعلى درجات التمام...، ﴿عَظِيمٌ﴾ تام؛ لأنه آخر قصة الكفار...، ﴿قَدِيرٌ﴾ تام: باتفاق؛ لأنه آخر قصة المنافقين»[(٣)].

فأنت ترى أنّ هذا التعددَ وذلك الاختلافَ والتباين يُعَدّ مسوِّغًا للوقف، ولا ضَيْر في ذلك؛ فإنّ المعاني قد تمّت، والمفاهيم قد انجلت، فتلك أعلى

(١) القطع والائتناف، للنحاس، ص٣٥.

(٢) المكتفى، للداني، ص٢٠.

(٣) منار الهدى، للأشموني، ص ٧٨- ٨٢- ٨٧.

درجات الوقوف، بينما يَعُدُّ علماءُ المناسبة ذلك من الترابط والائتلاف، بذكر الطوائف التي يتألّف منها المجتمع حين ذاك.

يقول السيوطي: «الثاني: المضادة، كقوله في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [البقرة: ٦]، فإن أول السورة كان حديثًا عن القرآن، وأنّ من شأنه الهدايةَ للقوم الموصوفين بالإيمان، فلمّا أكملَ وَصْفَ المؤمنين عقَّبَ بحديث الكافرين، فبينهما جامعٌ وهميّ بالتضاد من هذا الوجه، وحكمته التشويق والثبوت على الأول، كما قيل: وبضدّها تتبيّن الأشياء»(١).

وقال البقاعي: «ولمّا أردف البيان لأوصاف المؤمنين التعريف بأحوال الكافرين -وكانوا قد انقسموا إلى مصارِحين ومنافقين، وكان المنافقون قِسمَيْن؛ جُهَّالًا من مشركي العرب، وعلماءَ من كفار بني إسرائيل- كان الأنسب -ليفرغ من قِسْمٍ برأسه على عجل- البداءة أوّلًا بالمصارِحين، فذكر ما أراد من أمرهم في آيتين، لأنّ أمرَهم أهونُ وشأنَهم أيسرُ؛ لقصدهم بما يوهنهم بالكلام أو بالسيف، على أنّ ذكرهم على وجه يعمّ جميع الأقسام، فقال مخاطبًا لأعظم المنعَم عليهم على وجه التسلية والإعجاز في معرض الجواب لسؤال مَن كأنّه قال: هذا حال الكتاب للمؤمنين فما حاله للكافرين؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾»(٢).

---

(١) معترك الأقران، للسيوطي، (١/ ٤٦).

(٢) نظم الدرر، للبقاعي، (١/ ٩١- ٩٢).

المثال الثالث:

الوقف على: ﴿مَّقْسُومٌ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٤- ٤٥].

فالوقف على ختام الآية الأُولى تام؛ لأنّه نهاية الكلام عن جزاء أتْباع إبليس، وذِكْرِ مآلهم، قال الأشموني: «﴿مَّقْسُومٌ﴾ تامّ، فصلًا بين ما أعدّ لأهل النار، وما أعدّ لأهل الجنة»(١).

وعلى ما تقرّر فإن المناسبة بين الآيتين ظاهرة، بمجمع المقابلة بين مآل الكافرين الصادِّين عن دين الله، ومآل المؤمنين الصادقين المتّبِعين لدِين ربهم وسُنّة نبيهم.

قال البقاعي: «ولمّا ذكَر الكافرين وما جرّهم إلى الضلال، وجرأهم على قبائح الأعمال؛ ذكَر المخلِصين فقال -مؤكِّدًا لإنكار المكذِّبين بالبعث-: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾»(٢).

وقال في التحرير والتنوير: «استئناف ابتدائي، انتقال من وعيد المجرمين إلى بشارة المتقين على عادة القرآن في التفنّن»(٣).

---

(١) منار الهدى، للأشموني، ص٢٤٢.

(٢) نظم الدرر، للسيوطي، (١١/ ٦٢).

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (١٤/ ٥٤).

ثانيًا: في ثنايا الآيات:

المثال الأول:

الوقف على ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ﴾ من قوله: ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٩].

فالوقف هنا تام، وبيان ذلك أن قوله: ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ﴾ جملة من مسند إليه ومسند، قصد بها الفصل بين ما قبلها وما بعدها، فيؤتى بها للانتقال من قصة إلى أخرى، ومن غرض إلى غرض، فبعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة طرفًا من قصص المرسلين السابقين، وذكر ما لقي كلّ منهم من أنواع البلاء وصنوف الابتلاء؛ تثبيتًا لقلب نبيّه، أراد أن يذكر في الآيات التالية ما أعدّه الله لعباده المتقين، من حسن المرجع وجزيل المثوبة، فقال: ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ﴾؛ فصلًا بين المقامين، وتمييزًا بين المقصدين، ففي الإتيان بهذه الجملة إيذان بأن نوعًا من الكلام قد تم، وسيشرع في بيان نوع آخر[(١)].

قال ابن عاشور: «﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ﴾ جملة فصلت الكلام السابق عن الكلام الآتي بعدها قصدًا لانتقال الكلام من غرض إلى غرض، مثل جملة: أمّا بعد؛ فكذا»[(٢)].

---

(١) معالم الاهتداء، للحصري، ص٢٢.

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٢٣/ ٢٨٠).

وقال السيوطي -مقرِّرًا هذا الانتقال المؤذن بتمام الكلام-: «فكأنّ قوله: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞ﴾ ختام للكلام المتقدّم، ثم شرع بعده في كلامٍ آخر، كما يتم المؤلّف بابًا ثم يقول: هذا باب، ثم يشرع في آخر»[(١)].

قال الأشموني: «لمّا فرغ من ذكر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ذكر نوعًا آخر، وهو ذكر الجنة وأهلها، فقال: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞ﴾، وفصل به بين ما قبله وما بعده إيذانًا بأن القصة قد تمّت وأخذ في أخرى، وهذا عند علماء البديع يسمى تخلُّصًا، وهو الخروج من غرض إلى غرض آخر مناسب للأوّل»[(٢)].

أمّا في علم المناسبة فيعدّون هذا التخلّص وذلك الانتقال من الروابط بين الآيات، يقول السيوطي: «ويقرب من الاستطراد -حتى لا يكادا يفترقان- حُسن التخلّص، وهو أن ينتقل مما ابتدأ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل، يختلسه اختلاسًا دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدّة الالتئام بينهما»[(٣)].

وقال أيضًا: «ويقرب من حُسن التخلّص الانتقال من حديث إلى آخر؛ تنشيطًا للسامع مفصولًا بهذا، كقوله في سورة ص -بعد ذكر الأنبياء-: ﴿هَٰذَا

(١) معترك الأقران، (٣/ ٢٤٧).

(٢) منار الهدى، ص٦٥٩.

(٣) معترك الأقران، (١/ ٤٧).

﴿ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، قال: هذا القرآن نوعٌ من الذِّكْر، لَمّا انتهى ذِكر الأنبياء، وهو نوع من التنزيل، أراد أن يذكر نوعًا آخر وهو ذكر الجنة وأهلها... قال ابن الأثير: هذا في هذا المقام من الفصل هو أحسن من الوصل، وهي علاقة وكيدة بين الخروج من كلام إلى آخر»[(١)].

فهذا الانتقال في حدّ ذاته يُعَدّ رابطًا بين الآيات، مع ما يتضمّنه من معانٍ خفية، ولطائف مستترة.

قال البقاعي: «ولمّا أتم سبحانه ما أراد من ذِكر هؤلاء الأصفياء عليهم السلام الذين عافاهم بصبرهم وعافى مَن دعوهم، فجعلهم سبحانه سببَ الفلاح ولم يجعلهم سببًا للهلاك، قال مؤكّدًا لشرفهم وشرف ما ذَكَّروا به، حاثًّا على إدامة تَذكُّره وتأمله وتدبره للعمل به، مبينًا ما لهم في الآخرة على ما ذكر من أعمالهم وما لمن نكب عن طريقهم على سبيل التفصيل: و﴿هَٰذَا﴾ أي: ما تلوناه عليك من أمورهم وأمور غيرهم، ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: شرف في الدنيا وموعظة من ذكر القرآن ذي الذّكر»[(٢)].

(١) معترك الأقران، للسيوطي، (١/ ٤٨).

(٢) نظم الدرر، للبقاعي، (١٦/ ٤٠١).

المثال الثاني:

الوقف على: ﴿هَٰذَاۚ﴾، من قوله: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٥٥].

يجوزُ أَنْ يكونَ «هذا» مبتدأ، والخبرُ مقدَّرٌ، فقدَّره الزمخشري: «هذا كما ذُكِر»، وقَدَّره أبو عليّ: «هذا للمؤمنين»، ويجوزُ أَنْ يكونَ خبر مبتدأ مضمرٍ، أي: الأمرُ هذا[(١)]، كما أنّ الواو بعده للاستئناف، فالوقف هنا تام؛ فالآيات السابقة تتحدّث عما أعدّه الله للمتقين من جنات فيها الخلود الأبدي، والنعيم السرمدي، والآيات اللاحقة تتحدّث عمّا أعده الله للطاغين المكذِّبين، الذين كذّبوا الرسل وعادَوا الأنبياء.

ويؤكّد تمام الوقف هنا أن اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ يُستعمل لفصل الكلام السابق عن الكلام اللاحق، بقصد الانتقال من معنى إلى آخر، أو من غرض إلى آخر[(٢)]، قال الشيخ عبد الرحمن حبنّكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن الاقتضاب البديع الفصل بين قِسم وقِسم آخر باسم الإشارة (هذا)، أو (هذا ذِكر)، أو نحوهما مما يشعر بالانتهاء من الكلام على القسم السابق للبدء بالكلام على قسم آخر... ومن أمثلته ما جاء في سورة ص... وبعد أن وصف حالة المتقين في جنّات عدن جاء

(١) الدر المصون، للسمين، (٩/ ٣٨٧).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، (٢٣/ ٢٨٠).

دور الحديث عن الطاغين أهل جهنم، ففصل الله -عز وجل- بقوله: ﴿هَـٰذَا﴾، وبعده قال الله تعالى: ﴿...وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾»[1].

قال السيوطي: «لمّا تمّ ذِكْر أهل الجنة ختمه بقوله: ﴿هَـٰذَا﴾، ثم ابتدأ وَصْف أهل النار، ويعني بالطَّاغِين الكفار»[2].

أمّا عن وجه ارتباطها فيقول البقاعي: «ولمّا كانت النفوس نزّاعة للهوى ميّالة إلى الرّدى، فكانت محتاجة إلى مزيد تخويف وشديد تهويل، قال تعالى متوعِّدًا لمن ترك التأسِّي بهؤلاء السادة في أحوال العبادة، مؤكّدًا لما مضى من إيعاد العصاة وتخويف العتاة: ﴿هَـٰذَا﴾ أي: الأمر العظيم الذي هو جدير بأن يجعل نصب العين، وهو أنه لكلّ من الفريقين ما ذكر وإنْ أنكره الكَفَرة»[3].

(١) البلاغة العربية؛ أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم - دمشق، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، (٢/ ٥٦١، ٥٦٢).

(٢) معترك الأقران، (٣/ ٢٤٧).

(٣) نظم الدرر، (١٦/ ٤٠٤).

الأصل الثالث: اختلاف الحيثية وتباين الغاية:

وذلك لأنّ طرفي النزاع متباينان؛ فعلمُ المناسبة الغايةُ منه الربطُ بين ما هو ظاهرٌ انقطاعُه، وتوثيق ما هو بادٍ انفصالُه، أمّا المعاني ظاهرة الاتصال فليست مَعْنِيَّةً في هذا العلم؛ يقول السيوطي: «والذي ينبغي في كلّ آية أن يبحث أول كلّ شيء عن كونها تكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففي ذلك علم جمّ»[(١)].

وقرّر هذا المعنى في محلّ آخر بصورة أوضح، فقال: «ذِكرُ الآية بعد الأخرى إمّا أن يكون ظاهرَ الارتباط؛ لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه في الأولى، فواضح، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل، وهذا القسم لا كلام فيه، وإمّا ألا يظهر الارتباط، بل يظهر أن كلّ جملة مستقلة عن الأخرى، وأنها خلاف النوع المبدوء به، فإمّا أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشركة في الحكم، أو لا. فإن كانت معطوفة فلا بد أن يكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقسيمه... وإن لم تكن معطوفة فلا بد من دعامة تُؤْذن باتصال الكلام، وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط»[(٢)].

---

(١) معترك الأقران، للسيوطي، (١/ ٤٤).

(٢) معترك الأقران، للسيوطي، (١/ ٤٥).

فعلمُ المناسبة يعتني بهذا النوع الذي لا يربطه شيء بسابقه، بل يظهر للناظر انقطاعُه، وهذا وجه الإعجاز فيه، أمّا المعاني ظاهرةُ الاتصال فلا تندرج معنا، فأيّ إعجاز في بيان تناسبها؟!

وبذلك يظهر هشاشة تلك الاتجاهات التي تدرج هذه الارتباطات الظاهرة ضمن تقسيمات علم المناسبة[١].

وإذا تقرّر ذلك فاعلم أنه لا تعارض بين علم الوقف والابتداء وعلم المناسبة في هذا النوع، والحاصل أن محاولة ربط ما هو ظاهرٌ انفصالُه يصبّ فيما يراه علماء الوقف والابتداء، ويؤكّد تمام الوقف عليه، وإلا لو كان ظاهر الاتصال لما كان هناك حاجة لربطه، أو التفكّر في إبراز وجهٍ لاتصاله، وهذا النوع يكون في تلك الآيات التي لا يظهر للناظر فيها أيّ وجه اتصال، كالربط بين قصتين متتاليتين، وما قبل أوّل القصة، وبين السورتين عمومًا.

(١) ينظر: المناسبات بين السور؛ فوائدها، وأنواعها، وموقف العلماء منها، بحث د. سامي عطا حسن، ص١٦.

التمثيل:

المثال الأول:

الوقف على ﴿قَدِيرٌ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢٠- ٢١].

فهذا الوقف في أعلى درجات التمام، فهو نهاية الحديث عن المنافقين، وكذلك انقضى الحديث عن الطوائف الثلاث، بما لا يظهر للناظر أيّ رابط بين الآيتين، قال الأشموني: «﴿قَدِيرٌ﴾ تام: باتفاق؛ لأنه آخر قصة المنافقين»[(١)].

فإن قيل ما الفرق بين هذا الوقف -وهو آخر الكلام عن المنافقين- والوقف على: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، آخر الكلام عن المؤمنين، وكذلك الوقف على: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، آخر الكلام عن الكافرين؟!

فَقُل: هذه الوقوف وإن كانت تامّة فإنها ضمن دائرة الحديث عن طوائف المجتمع في المدينة حينذاك، فهناك معنى رئيس تدور حوله هذه الآيات على اختلافها، وقد تناولها البحث قَبْلًا، أمّا الوقف على: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، فهو نهاية الحديث عن هذا المعنى العام، وبه ختام الوحدة

(١) منار الهدى، للأشموني، ص٨٧.

الموضوعية في الآيات؛ لذا فهو آكد الانفصال عمّا بعده، وفي أعلى درجات التمام، فليس مجرّد ختام الكلام عن المنافقين، بل هو انتهاء الوحدة الموضوعية للآيات.

أمّا مناسبة الآيات لما قبلها فيقول ابن عاشور: «فإنه لمّا استوفى أحوالًا للمؤمنين وأضدادهم من المشركين والمنافقين لا جرم تهيّأ المقام لخطاب عمومهم بما ينفعهم؛ إرشادًا لهم ورحمة بهم؛ لأنّه لا يرضى لهم الضلال، ولم يكن ما ذكر آنفًا من سوء صنعهم حائلًا دون إعادة إرشادهم والإقبال عليهم بالخطاب، ففيه تأنيس لأنفسهم بعد أن هددهم ولامهم وذمّ صنعهم؛ ليعلموا أن الإغلاظ عليهم ليس إلا حرصًا على صلاحهم، وأنه غني عنهم، كما يفعله المربي الناصحُ حين يزجُر أو يوبِّخُ فيَرى انكسارَ نفسِ مُرَبّاه فيَجْبُر خاطرَه بكلمة ليّنة؛ لِيُرِيَهُ أنه إنما أساء إليه استصلاحًا وحبًّا لخيره. فلم يترك من رحمته لخلقه حتى في حال عتوّهم وضلالهم وفي حال حملهم إلى مصالحهم.

وبعد؛ فهذا الاستئناس وجبر الخواطر يزداد به المحسِنون إحسانًا، وينكفُّ به المجرمون عن سوء صنعهم، فيأخذ كلُّ فريق من الذين ذُكِروا فيما سَلف حظَّه منه»[1].

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (١/ ٣٢٤).

المثال الثاني:

قبل بداية القصة، وهو قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٧٣ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٣- ٧٤].

فالوقف على ختام الآية الأولى تام؛ لعدم تعلّقها بما بعدها في المعنى؛ وذلك لأنها تضمّنت إخبارَ الله لعباده بأنه خلق السماوات والأرض بالحقّ، فلم يخلقهما باطلًا ولا عبثًا، وهذا يستوجب اتّقاء عقابه، واجتناب عذابه يوم القيامة، فهو الوحيد المالك لهذا اليوم، يعلم ما خفي وما ظهر وما يغيب عن الحواس والأبصار، حكيم في أفعاله، خبير بشؤون عباده[1]، والآية التالية بداية قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، فالانفصال المعنوي ظاهر، وانقطاع الارتباط واضح.

أمّا وجه المناسبة بينهما فإنه لمّا ذكَر في الآيات السابقة الحُججَ والبراهين الدالّة على التوحيد، ومجادلةَ النبيِّ قومَه في شأن إثبات التوحيد وإبطال الشِّرْك؛ عقب تلك الحجج بشاهدٍ من أحوال الأنبياء، بذِكْر مجادلة أول رسول أعلن التوحيد وناظَر في إبطال الشِّرْك بالحُجّة الدامغة، والمناظرة الساطعة، ولأنها أعدل حُجّة في تاريخ الدِّين؛ إذْ كانت مجادلة رسول لأبيه ولقومه، وكانت أكبر حُجّة على المشركين من العرب بأنّ أباهم لم يكن مشركًا ولا مُقِرًّا للشّرك في

(١) صفوة التفاسير، للصابوني، (١/ ٣٦٩، ٣٧٠).

قومه، وأعظم حُجّة للرسول ﷺ إذْ جاءهم بالإقلاع عن الشِّرْك؛ ففيها تسلية للنبي ﷺ وحجّة على قومه، وتذكرة لهم[1].

المثال الثالث:

وذلك بين القصتين، قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النمل: ٤٤- ٤٥].

فالوقف على ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تام؛ لأنه نهاية الحديث عن قصة سليمان عليه السلام، وما بعدها بداية الحديث عن قصة صالح عليه السلام.

أمّا مناسبة الآية لما قبلها، ففيها مناسبتان: الأولى تتعلّق بالمعنى، والثانية تتعلّق بالمكان.

أمّا وجه الارتباط من جهة المعنى فإنه لما ذكر قصة سليمان وما تضمّنته من استسلام بلقيس وقومها للدخول في الإسلام، مع ما معهم من المنعة والملك والرئاسة والعز، والاستسلام لرجل غريب عنهم، بعيد منهم؛ أتْبَعها -على طريق المقابلة- بقصةٍ انقسم أهلُها فريقين، هذا مع فقرهم وحاجتهم، وكذلك الداعي رسول منهم، ولن يزول باتّباعه شيء من العز عنهم[2].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٧/ ٣١٠)، وصفوة التفاسير، ص٣٧١.

(٢) نظم الدرر، للبقاعي، (٥/ ٤٣١).

أمّا مناسبة المكان فيقول ابن عاشور: «والانتقال من ذِكر مُلك سليمان وقصة ملكة سبأ إلى ذكر ثمود ورسولهم دون ذِكْر عاد لمناسبة جوار البلاد؛ لأن ديار ثمود كانت على تخوم مملكة سليمان وكانت في طريق السائر من سبأ إلى فلسطين، ألا ترى أنه أعقب ذِكْر ثمود بذكر قوم لوط وهم أدنى إلى بلاد فلسطين، فكان سياق هذه القصص مناسبًا لسياق السائر من بلاد اليمن إلى فلسطين»[(١)].

المثال الرابع:

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤- ١٧].

فالوقف على: ﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٥] تام؛ مجمع على تمامه عند أهل الفن، وهو من المواطن المشكل ارتباطها بما بعدها عند علماء المناسبة.

يقول السيوطي: «من الآيات ما أشكلت مناسبتها لما قبلها، من ذلك قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦] الآيات، فإنّ وجه مناسبتها لأول السورة وآخرها عسير جدًّا، فإنّ السورة كلّها في أحوال القيامة، حتى زعم بعض الرافضة أنه سقط من السّورة شيء»[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (١٩/ ٢٧٨).

(٢) معترك الأقران، للسيوطي، (١/ ٤٩).

ثم قال: «وقد ذكر الأئمة لها مناسبات:

منها: أنه تعالى لمّا ذكرَ القيامة، وكان مِن شأن مَن يقصّر عن العمل لها حبُّ العاجلة، وكان من أصل الدين أنّ المبادرة إلى أفعال الخير مطلوبة، فنَبَّه على أنه قد يعترِض على هذا المطلوب ما هو أجلُّ منه، وهو الإصغاء إلى الوحي وتفهُّم ما يراد منه، والتشاغل بالحفظ قد يصدّ عن ذلك، فأُمِر بألّا يُبادِر إلى التحفظ؛ لأنّ تحفيظه مضمون على ربه، ولِيُصْغِيَ إلى ما يرِد عليه إلى أن يُقْضَى، فيتّبع ما اشتمل عليه.

ثم لمّا انقضت الجملةُ المعترضة رجع الكلام إلى ما يتعلّق بالإنسان المبدأ بذكره، ومن هو من جنسه، فقال: ﴿كَلَّا﴾ [القيامة: ٢٠]، وهي كلمة رَدْع، كأنه قال: بل أنتم يا بني آدم لكونكم خُلقتم من عَجَلٍ تَعجَلون في كلّ شيء، ومِن ثم تحبون العاجلة.

ومنها: أنّ عادة القرآن إذا ذكر الكلام المشتمل على عمل العبد حيث يعرض يوم القيامة أردفه بذِكْر الكتاب المشتمل على الأحكام الدينية في الدنيا، التي تنشأ عنها المحاسبة عملًا وتركًا..

١- كما قال في الكهف: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤].

٢- وقال في طه: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ [طه: ١٠٢].

إلى أن قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ [طه: ١١٤].

ومنها: أنّ «النفس» لمّا تقدّم ذكرُها في أول السورة عدل إلى ذكر نفس المصطفى، كأنه قال: هذا شأن النفوس، وأنت يا محمد نفسك أشرف النفوس، فلْتَأْخُذْ بأكمل الأحوال»[(١)].

(١) معترك الأقران، (١/ ٥٠، ٥١).

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فقد كان الهدفُ من هذا البحث دَفْعَ مشكلٍ كان يعرض أثناء تدريس هذا العِلْم، وقد توصّل البحث إلى أنه لا تلازم بين الانفصال المعنوي في الوقف التام، والترابط والاتصال في علم المناسبة، أمّا أهم النتائج التي توصّل إليها البحث فيمكن صوغها في الآتي:

١- تعتمد قِسمة الوقف والابتداء على ركنين أساسين: تمام الكلام ووصوله للمتلقي وَفق مراد الله، ودرجة اتصاله وانفصاله.

٢- ينبغي أن يعتمد الأوجه القويّة في تقرير الوقف والابتداء، وتجنّب التراكيب الركيكة، التي لا تقع في فصيح الكلام فضلًا عن كلام المولى -عزّ وجل-.

٣- التناقض الظاهر في الانفصال المعنوي في الوقف التامّ والاتصال والترابط في علم المناسبة كان مطروقًا، وأشار إليه بعضهم، فليس حديث عهد، ولم يكن بدعًا من القول، غير أنه لم يَلْقَ بالَ أحدٍ ليحلّ مشكله، ويوضّح مُبْهَمَهُ.

٤- الاتصال المعنوي المعنيُّ في علم الوقف والابتداء غير الاتصال المقصود في علم المناسبة، ففي علم الوقف والابتداء يقصد به المعنى المطابق الخاصّ، الظاهر للناظر دون تقصّ وتدقيق، بينما علم المناسبة يعتمد على تلك

الروابط الخفية، التي تحتاج إلى تأمّل وتدبّر وإعمال فِكْر وذِهْن ليقف القارئ عليها.

٥- معيار الاتصال والانفصال، ومفهوم الربط والفصل مختلف فيه بين علم الوقف وعلم المناسبة؛ ففي علم الوقف والابتداء يعتمدون المعاني المماثلة، والمفاهيم الموافقة في تقرير الاتصال والانفصال، أمّا في علم المناسبة فقد يكون من معاني الترابط، ومفاهيمِ الاتصال التضادُّ والتقابل، فالمعنى وضدّه، والحالة وعكسها يعدّ من الروابط، بل والانتقال من حديث إلى آخر يعدّ من الاتصال والروابط.

٦- اختلاف الحيثية، وتباين الغاية بين علم المناسبة وعلم الوقف والابتداء؛ فعلم المناسبات يعمل على ربط المنفصل ووصل المباين، وعلم الوقف والابتداء يؤكّد ذلك الانفصال ويعتمده في تقرير محلّ الوقف، وعليه لا تعارض بين علم الوقف والابتداء وعلم المناسبة، بل محاولة ربط ما هو ظاهرٌ انفصالُه يصبّ فيما يراه علماء الوقف والابتداء، ويؤكّد تمام تلك الوقوف.

٧- الوقف التام في ثنايا الآيات عزيز، وجملة ما وقف عليه البحث خمسة وقوف، يضاف إليهم الوقف على: ﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ [آل عمران: ٤]، وذلك على اعتبار أنّ الآيات المقصودة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤] هي عموم الآيات، فإن كان المقصود آيات القرآن -كما ذهب إليه بعضهم- فالوقف كافٍ.

المصادر والمراجع:

- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش، دار الإرشاد للشؤون الجامعية - حمص - سورية، الطبعة الرابعة: ١٤١٤هـ.

- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف، أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.

- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م.

- البلاغة العربية؛ أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

- تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض الزبيدي، محمد بن عبد الرازق، تحقيق مجموعة من المحقّقين، دار الهداية.

- التأصيل والتقعيد لأقسام الوقف والابتداء ومعاييره ومراتبه في تلاوة القرآن المجيد، د. محمود عبد الجليل روزن، المكتبة الخيرية، الطبعة الأولى: ٢٠٢١م.

- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

- التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة، الفجالة - القاهرة، الطبعة الأولى: ١٩٩٧م.

- تفسير سورة الحشر، الدكتور/ سامي عبد الفتاح هلال، المقرّر على الفرقة الرابعة بكلية القرآن الكريم جامعة الأزهر.

- التناسب في أسلوب القرآن الكريم، مقال للدكتور/ حكمت الحريري، موقع مداد بتاريخ ٢٧ شوال ١٤٢٨هـ.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

- الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن عليّ الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق = بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ.

- الجدول في إعراب القرآن، محمود صافي، الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة الرابعة: ١٤١٨هـ.

- جهد المقل وبيان جهد المقل، المرعشي ساجقلي زاده، مؤسسة قرطبة.

- الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس أحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي، المحقّق: الدكتور/ أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.

- صفوة التفاسير، محمد عليّ الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ.

- علم المناسبات في القرآن، مقال للدكتور/ محمد بن عبد العزيز الخضيري، منشور بموقعه.

- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الأولى: ١٣٩٨هـ.

- القطع والائتناف، أبو جعفر أحمد بن إسماعيل النَّحَّاس، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، الناشر: دار عالم الكتب - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبد الرحمن حسن حبنّكة، دار القلم، دمشق = بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٠٧هـ.

- لسان العرب، جمال الدين بن منظور، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤١٤هـ.

- مباحث في التفسير الموضوعي، للدكتور/ مصطفى مسلم، دار القلم، الطبعة الرابعة: ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

- مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، عادل بن محمد أبو العلاء، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد: ١٢٩، السنة: ٣٧، ١٤٢٥هـ.

- معالم الاهتداء إلى معرفة الوقوف والابتداء، محمود خليل الحصري، مكتبة السُّنّة - مصر، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ.

- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

- مفاتيح الغيب، أبو عبد الله، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢٠هـ.

- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

- المكتفَى في الوقف والابتدا، أبو عمرو الداني، تحقيق: محيي الدين رمضان، الناشر: دار عمار، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

- منار الهدى في بيان الوقف والابتدا، عبد الكريم الأشموني، ومعه المقصد لتلخيص ما في المرشد، أبو يحيى زكريا الأنصاري، دار الكتب العلمية

- بيروت، تحقيق: شريف أبو العلا العدوي، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م.

- المناسبات بين الآيات والسور؛ فوائدها، وأنواعها، وموقف العلماء منها. بحث د/ سامي عطا حسن، جامعة آل البيت.

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.